في الشياطين

بقلم المتروبوليت سابا (اسبر)

ثمّة نزعة سارية، تنحو إلى إنكار الشيطان، وعدم اعتباره كائناً موجوداً. يعتقد بعض الناس، خاصّة بين المعتَبَرين مثقّفين، أنّ الشيطان خليقة الإنسان، وأنّ الشرّ، في الأساس، موجود في الإنسان فقط، لا خارجاً عنه أيضاً. لكن أَصحاب هذا التيّار لا يفسّرون، كفايةً، سبب وجود الميل نحو الشرّ عند الإنسان. ولا يجيبون، بوضوح، عن السؤال المطروح دوماً: من أين للإنسان المحدود هذه الطاقة اللامحدودة نحو الشرّ الهائل التدمير؟

يبقى الأمر عادياً لو بقي منكرو الشيطان من بين غير المؤمنين. لكن يبدو، في الآونة الأخيرة، أنّ بعضاً من الوعّاظ والمعلّمين باتوا ينكرون الشيطان، أو يلغونه وتأثيره من حياة المؤمنين. يدفعهم إلى ذلك، إمّا قناعةً شخصيّة، ناسين أنّهم ينتمون إلى منظومة إيمانيّة متكاملة، أو رغبةً في إبعاد الخوف منه عن وجدان المؤمنين. إنّ تأثير الفكر الدنيوي بات يغزو الكنيسة، وما الأمر الذي نتكلّم عنه سوى أحد علامات هذا الغزو.

يقابل هذه النزعة نزعة أخرى تنحو نحو رمي كلّ أسباب الشرور على الشيطان، وتبرئة الإنسان من مسؤوليّته الشخصية عنها، وإهمال السعي نحو تفسير الشرور الحاصلة، والبحث في أسبابها المتنوّعة.

ماذا يقول الإيمان المسيحيّ في هذا الخصوص، وإزاء هاتين النزعتين المتضادتين؟ الشياطين، بحسب الإيمان المسيحيّ، كائنات حيّة لا جسدانيّة. كانت في الأصل ملائكة رفضت الله، فسقطت من حضرته وصارت عدوّة له ولكلّ من يتبعه.

لا يكشف لنا الوحي الإلهي كيف ولماذا سقطت الشياطين؟ يكتفي الكتاب المقدّس بالتلميح إلى حدوث كارثة كبرى في فجر الخليقة، قبل خلق العالم المنظور، وبعد خلق الملائكة، لا نعرف عنها سوى نتائجها أو عواقبها. نصّب بعض الملائكة أنفسهم في موقع معارضة الله، فسقطوا، وصاروا أعداء لكلّ ما هو صالح ومقدّس.

> "ووقعت حرب في السماء بين ميخائيل وملائكته وبين التنين، فقاتلهم التنين بملائكته، لكنّهم انهزموا وخسروا مكانهم في السماء...وسقط التنين العظيم

إلى الأرض، وهو تلك الحيّة القديمة والمُسَمَّى إبليس أو الشيطان، خادع الدنيا كلّها، وسقط معه ملائكته" (رؤ١٢/٧-٩).

كما جاء في رؤيا يوحنا:

"...فهوت من السماء نجمة كبيرة كأنّها شعلة من نار، ووقعت على ثلث الأنهار وعلى الينابيع" (٨/١٠).

لذلك يسمّي التقليد المسيحيّ زعيم هذا التمرّد "لوسيفر،" وتعني اللفظة حامل النور. ما يعني أنّه كان ملاكاً وسقط، لأنّه تغيّر، بإرادته الشخصيّة، من حالته الطبيعيّة إلى شخص في حالة غير طبيعيّة. فوضع نفسه ضدّ الله، وسقط من الصلاح إلى الشرّ.

إنكار وجود الشيطان، وفعله، وتأثيره، لا يتوافق والإنجيل. فتعليم الربّ يسوع واضح جدّاً في هذا الأمر. فقد سمّاه "سيّد هذا العالم" (يو١٤/٣٠)، كما واجهه، شخصيّاً، في التجربة بعد اعتماده وصومه الأربعينيّ (متى ٤ ولوقا ٤). كذلك قال عنه قولاً صريحاً في مَثَل الحنطة والزؤان:

"والحقل هو العالم، والزرع الجيّد هو أبناء الملكوت، والزؤان هو أبناء الشرّير، والعدو الذي زرع الزؤان هو إبليس، والحصاد هو نهاية العالم، والحصّادون هم الملائكة" (مت١٣/٣٨-٣٩).

ونكتفي من بولس الرسول باستشهادين فقط.

"تسلّحوا بسلاح الله الكامل، لتقدروا أن تقاوموا مكائد إبليس. فنحن لا نحارب أعداء من لحم ودم، بل أصحاب الرئاسة والسلطان والسيادة على هذا العالم، عالم الظلام والأرواح الشرّيرة في الأجواء السماويّة" (أف٦/١١-١٢).

و"فالشيطان نفسه يظهر بمظهر ملاك النور" (٢كو١١/١٤).

تعني لفظة الشيطان، في الأصلين العبري واليوناني، معاني عدّة، تفيد كلّها معنى الشرّ: الخصم، لأنّه عدوّ الإنسان؛ المُعانِد: لأنّه يقاوم الله ومشيئته؛ المُقسِّم: لأنّه وراء كلّ انقسام وانفصال؛ المحتال: لأنّه يحتال على الإنسان، لكي يوقعه في الخطيئة، بطرق

وأساليب لا تُعَد ولا تُحصى. وقد سمّاه المسيح في الإنجيل "الكذّاب وأبو الكذب" (يو٨/٤٤).

السؤال المطروح عند الكثيرين: لماذا لا نرى الشيطان أو نواجهه شخصيّاً؟ والجواب المسيحي بسيط جدّاً، وهو أنّه ليس بحاجة إلى إظهار ذاته للبشر. بل يكفي أن يومئ لهم، أو يوحي إليهم بفكرة ما، حتّى يتجاوبوا معه بسهولة. معنى الجواب أنّ ضعف البشر روحيّاً، لا يدعو الشيطان إلى منازلتهم شخصيّاً. في حين أنّنا نعرف، من خبرات الروحانيّين الكبار، أنّهم واجهوه شخصيّاً، وأنّه تعرّض لهم وقاتلهم. ذلك لأنّه لم يقدر على غلبتهم بالفكر والإيحاء.

لا يعني هذا الكلام أنّ الإنسان العادي لا يختبر وجود الشيطان وفعله حوله وفيه. ذلك أنّ أيّاً منّا قادر، بمراقبة ذاته روحيّاً،على أن يرى قوّة غير منظورة تدفعه نحو الشرّ، كلّياً أو جزئيّاً. قرّرْ أن تعطي مبلغاً ما لمعوز يستحقّه. ولاحظ كمّ الأفكار التي تأتيك، بغية دفعك إلى الإنقاص من المبلغ، من حين اتخاذك هذا القرار وحتّى تنفيذه!!

يبقى السؤال حياتيّاً، ما هو الموقف الواجب علينا اتّخاذه من الشيطان؟

ينصح التراث المسيحيّ الروحيّ، الأرثوذكسيّ بخاصّة، بأن لا نضخّم دوره، من جهة، وأن لا نستخفّ به وبأفعاله، من جهة أخرى. كذلك أن لا نتّخذه ذريعة للاستعفاء من التفتيش عن الأسباب الشخصيّة والفرديّة والاجتماعيّة، التي تؤدي إلى الشرّ والبؤس، أو عن الأسباب الطبيعيّة، التي تؤدي إلى الكوارث والأوبئة والأمراض.

إنّ تضخيم دور الشيطان، والاستعفاء من المسؤوليّة الشخصيّة عن الشرّ المحيق بنا، يساهمان في نمو النزعة القائلة بإنكار وجوده، كما يجعل الإنسان في موقع المرتعب منه، وتالياً عاجزاً عن مقاومته. كما أنّ الاستخفاف به وبتأثيره، يجعلاننا، دونما وعي، تحت سلطته وتأثيره. يسيّرنا آنذاك ونحن غافلون.

كذلك ينصحنا تراثنا الروحي بأن لا نتخذه ذريعة لتبرير ذواتنا من مسؤوليّتنا الشخصيّة عن الشرّ المحيط بنا. نؤمن بأنّ الإنسان، بعد سقوط "آدم وحواء،" صار عرضة للشرّ الذي سيطر عليه. لكنّنا نؤمن أيضاً بأنّنا، بالمسيح القائم من بين الأموات، لم نعد تحت سلطة الشرّير المباشرة، ما لم ننكر المسيح ومعموديتنا، ونسلّم أنفسنا بطواعية للشيطان.

إذن، على المسيحي أن يواجه الشرّ الذي فيه، ويسعى بجدّ للتخلّص منه، وذلك باستبداله بالخير المعاكس له. يقول تراثنا الروحيّ بعدم كفاية نزع الرذيلة من النفس، ويطالب بالعمل على استبدالها بالفضيلة المقابلة لها.

من هنا يقوم سعي الإنسان في سبيل تطهير نفسه والسموّ بها، على الاهتمام باقتناء الفضائل. فالعلاقة طردية في هذا المجال: بمقدار ما تمتلئ من محبّة الله والفضيلة، يقلّ الشرّ الذي فيك.

ستبقى دنيانا مسرحاً للصراع بين قوّة الله الغالبة، وقوى الشياطين إلى اليوم الأخير. نواجه هذا الصراع، أوّلاً، في داخلنا، وعلى مستوانا الشخصيّ. أخبرنا الربّ بمَثَل الحنطة والزؤان، اللذين سوف يُفصلان في اليوم الأخير (مت١٣/ ٤٠).

ينسب الروحانيّون الكبار كلّ شرّ في عالمنا إلى أنفسهم، مؤمنين بأنّهم لو تنقّوا بالشكل المطلوب لكانت أمور هذا العالم أفضل. قال أحد اللاهوتيين المعاصرين:

> "ليست المشكلة في أن ليس كلّ البشر مسيحيّين، بل في أن ليس جميع المسيحيّين قدّيسين."

هكذا يتعاطى المؤمنون مع الشرّير.